الاشارة واداة التعريف هي واحدة منقولة عن الطيعة ليس الّا

ولا شك ان العرب كانوا يتخذون اداة التعريف الهمزة من ذلك اسم الإطوريين القديم (راجع المشرق ٦ : ١٩٠) ومعناهُ الجليُّون . الّا انهم زادوا اللام لتزيين اللفظ . ومن الغريب ان نحاة العرب نسوا مقام الهمزة واهميّتها في التعريف وعلّقوا كل الاهميّة باللام حتى قالوا اغلب الاحايين « لام التعريف » فسبحان الكشّاف للسرائر والاسرار . والمُبرز لخفايا الابرار والاشرار . ومضمر الاوضار والآصار . الى ان يشاء وبمقدار ما يشاء . انهُ على كل شيء قدير

الفتية التوّابون

مقدّمة

نقلنا هذه الرواية عن احد مخطوطات مكتبتنا الشرقيّة وهو مجموع قديم يحتوي عدّة اخبار اكثرها في الزهد . امّا مؤلف الكتاب فليس مذكور فيهِ وانغالب انهُ من أدباء القرن الرابع عشر للمسيح . فاخترنا منهُ هذه الرواية لما تحتويهِ من الفوائد التاريخيّة لتعريف بعض احوال المدينة في القرن الثاني للهجرة لأنّ الفتية المذكورين عاشوا في ذلك الزمان وقد وجدنا في كتب التاريخ بعض اسمائهم . امّا الراوي فهو عيسى بن يزيد الشهير بابن داب احد كبار المحدّثين في ايّام الخلفاء من بني العبّاس واختصّ بخدمة المهديّ وابنهِ الهادي ومات في ايّام هارون الرشيد . وروايتهُ هذه مع فائدتها لا تروي غليلًا اذ لم يُفدنا صاحبها عن الدواعي التي حملت هؤلاء القوم الى التوبة ومن ثمّ خاضوا في توبتهم كما انهُ لم يُبين من اعمالهم الصالحة غير اقتطاعهم عن اللذّات . والتوبة كما لا يخفى لا تقوم فقط بالانتهاء عن المحارم بل بعمل المبرّات وملازمة الصلاح ل . ش

ذكر عيسى بن داب ان هؤلاء الفتية كانوا عشرة نفر وهم سليمان بن عمرو القرشي واخوهُ يحيى بن عمرو وهارون بن الحُصَين التميمي واخوه احمد بن الحصين ومحمّد بن زرعة العبدي واحمد بن محمد البشكري وبشر بن مطر الازدي وسعيد بن اسماعيل الاسدي ويعقوب بن عبد الكريم الطائي وعبد الله الأنصاري . قال عيسى بن داب : وكان السبب في توبة هؤلاء القوم انهم كانوا في المدينة على امرٍ من الامور التي لا يُحبُّها

الله تعالى. وكان هولاء الفتية العشرة في كل ضحوة سابغة لا يأتي عليهم يوم من الايام الّا وهم اشدُّ سروراً واطول حبوراً من يومهم الذي مضى الى ان اراد الله عزّ وجل هدايتهم الى الخير وان ينقذهم من ظلمة المعاصي الى نور الطاعة

فاوّل من ارتدع منهم ودعتهُ نفسهُ الى التوبة والانابة الى الله يحيى بن عمرو القرشي. فعزم على ذلك وجعل يسرُّهُ في نفسهِ ولا يذكر لاخوانهِ شيئاً مما عزم عليهِ. وهو مع ذلك يجالسهم ويحادثهم فبينما هم ذات يوم في شرابهم ولهوهم اذ اخذوا شيئاً من نشائد الاشعار التي قد احدثوها بينهم. فجعل كل واحد منهم يقول شيئاً ويحيى بن عمرو القرشي ساكت لا ينطق بشيءٍ حتى فرغوا من نشيدهم. فاحبَّ ان يلقي اليهم شيئاً مما عزم عليهِ من امر التوبة ونزوعهِ عما هو عليهِ فانشد يقول:

قالت سلوتَ فقلتُ لستُ بجاحدٍ ... آيَ المهيمن ذي الجلال الواحدِ
وسلختُ ودَّكِ من فؤادي مثلما ... سُلخ النهارُ من الظلام الراكدِ
قالتْ أعِدْ فالعَوْد عندي احمدٌ ... فأجبتُها هيهات لستُ بعائدِ
اني اخاف عذاب ربٍّ سرمدٍ ... تبدو فضائحهُ فلستُ بياندِ

(قال) فلما سمع القوم من يحيى بن عمرو هذه الابيات انكروا ذلك منهُ انكاراً شديداً. ثمَّ انهم عذلوهُ وأكثروا من عذلهِ ولومهِ ثم قالوا: يا هذا لقد سمعنا منك شيئاً نخاف ان يكون فيهِ تفريق جماعتنا وتشتيت ألفتنا وانّا لنناشدك الله في ذلك. فتبسم يحيى بن عمرو وحرّك راسه وقال هذه الابيات:

ان في اللهو ما علمتُ سروراً ... لم يُوقِّ حوادث الأقدارِ
غير أني تركتُ ذلك خوفاً ... وحذاراً من شرِّ نارٍ وعارِ
فأتيوا الى الالوِ وتوبوا ... كم الى كم تقيمُ في الإصرارِ

(قال) فلما سمع القوم ذلك اقبل اليهِ اخوهُ سليمان بن عمرو وقال لهُ: والله يا اخي ما عدا جميعُ ما تكلمتَ بهِ سويداء قلبي. ولقد اخذ بمجامع عقلي ولبي. حتى لقد غلب على سمعي وبصري واحال بيني وبين لذّاتي. ولقد علمتُ ان الامر كما ذكرت وان الرغبة فيما رغبت. ثمَّ انشأ سليمان بن عمرو يقول هذه الابيات:

يا من يلوم موفَّقاً ... يدعو الى اسعادهِ
انَّ النصيح اذا دعا ... لم يألُ في ارشادهِ
لا تنكروا ما قالهُ ... من بذلهِ لرشادهِ
فلقد اتى بنصيحة ... موصولةٍ بسدادهِ

(قال) فلما سمع القوم كلام سليمان بن عمرو ورأوا ميلهُ الى اخيه جعل بعضهم يقول لبعض هذا ما كنّا نحذر منهُ تفريق الالفة وتكدير صفو العيش فعند الله نحتسب ما نُجنا به منكما

(قال) ثمَّ انصرف القوم عن مجلسهم ذلك وهم مغمومون بامر يحيى واخيهِ سليمان. فلمَّا كان في الليلة المقبلة اجتمعوا ايضاً وجلسوا فلما اطمأنَّ بهم المجلس اقبل عليهم يحيى بن عمرو فقال لهم: يا اخوتي واخلائي ومن تقرُّ عيني بصلاحهم واجتماع كلمتهم انه قد ينبغي للراقد ان يستيقظ من رقدتهِ ويتخلَّى عن غشوته. ومهما شككتم في شيء فلا تشكوا في الموت انه نازل بي وبكم. واسأل الله العصمة والتوفيق والتسديد لي ولكم. ثمَّ انشأ يقول هذه الابيات:

دعوتكمُ للرشدِ والنصح جاهداً ... وما زلتُ للاخوان مذ كنت ناصحا
فان تقبلوا نصحي تنالوا سعادةً ... وتأتوا طريقاً بيّنَ القصد واضحا
ومن يترك القصد المنيرَ طريقهُ ... يلاقي فساداً نارهُ ليخلد طالحا

ثم اقبل عليهم سليمان بن عمرو فقال: يا اخوتي ومن قد عظمت حقوقهم عليَّ وايدت ايديهم عندي انكم قد علمتم ما افترقنا عليه ليلتنا الماضية وما دعاكم اليه اخي يحيى الناصح لكم الشفيق عليكم فان تجيبوا الى التوبة والتزوع عمَّا انتم عليهِ فحظكم اصبتم وللخير أجبتم. وان تقيموا على ما ارى من تعطلكم واتباعكم أهواءكم فاني أسأل الله لكم التوفيق والسلام. ثم أنشأ يقول:

سألت اخي ان يؤلفَ بيننا ... على الخير كالتأليف في سالف الدهرِ
فقد عشتُ عصراً وعصراً وانتما ... لفي غمرةٍ جهلاً فتُهوي ولا تدري
تلجج في بحرٍ سكارى بحيرةٍ ... فحتى متى لسنا نفيق من السكرِ
فتوبوا تنالوا جنَّة الخلد انما ... ينال جنان الخلد من كان ذا صبرِ

(قال) فلما سمع بشر بن مطر الازدي مقالة يحيى واخيهِ سليمان واستحكم قولهم في قلبهِ اعجبهُ ذلك فقال:

لعمري لئن بعتُ الهدى بالعمى ... وآثرتُ غير الحق انّي لخاسرُ
أأترك حظي بعد اذ انا قادر ... على اخذه والحقُّ فيه بصائرُ
سأجبر نفسي عن هواها وغيّها ... بجبر قويّ العزم والأمرُ صابرُ

(قال) فلما سمع القوم مقالة بشر غمَّهم ذلك غمّاً شديداً. ثمَّ اقبل هارون بن

الحصين على اصحابه وقال لهم: انا لله وانا اليه راجعون. ما اعظم الرزية بفرقتكم واجل المصيبة بتباعدكم والله ما اظنُّ هذا الامر مشتتاً جماعتنا مكدّراً طيبنا صفو عيشنا لان الذي دعوتونا اليه من مزايلة ما نحن فيه لشديد وهو اثبت وارسخ من ان تزيلهُ العظات. ثم افترقوا ليلتهم مغمومين

فلما كان من الليلة الثالثة اجتمعوا فلما اطمأنَّ بهم المجلس اقبل عليهم محمد بن زرعة العبدي فقال: يا اخوتاه اسمعوا مني كلاماً وتدبروه بقلوبكم فقد اتيتكم باعجوبة. فقالوا: هات ما بدا لك. قال: اعلموا اني لما فارقتكم الليلة الماضية وسرتُ الى منزلي أرقت أرقاً شديداً حتى اذا كان قبل الصبح اغفيتُ فاذا انا بآتٍ قد اتى في منامي وهو يقول:

يا تاركَ القصد بعد معرفة ... وسالكاً غيرَهُ من الطرقِ
يجبى واصحابه على رشدٍ ... كما جلا الليلَ ساطعُ الفلقِ
فلا تكونَنَّ كالمقيم على ... دَحْضِ مُزلٍّ اشنى على غرقِ

(قال) فلما سمعت ذلك استيقظت فزعاً مرعوباً حتى كاد الخفقان ان يقرع قلبي. (قال) فاقبل عليه يعقوب بن عبد الكريم الطائيّ فقال: كأني وإياك يا اخي والله على امرٍ واحدٍ غير ان الالفاظ مختلفة وذلك لمّا اني قمت من مجلسنا حين افترقنا بالامس وبي من الفرقة والاسف لتشتُّت الشمل ما لا ابلغ وصفهُ حزناً على اخواني لما رأيت من مفارقتهم لنا وتقضهم علينا ما نحن فيه من الألفة والمودّة. اتيت الى منزلي واقمت عامّة ليلتي أدير عيني على الغمض فلا اقدر على ذلك. فبينما انا كذلك بين النائم واليقظان اذ انا بهاتف يقول هذه الابيات:

يا خافضاً في غمرة الجهلِ ... وسادراً عن اوضح السبلِ
لست على شيء فلا تكذبن ... وارجع الى التوبة في مهلِ
من قبل يوم معظم هائلٍ ... يُشيب راس المرضع الطفلِ

فلمّا سمعت ذلك استيقظت وما معي شيءٌ من عقلي فهذا والله يا اخوتي ما رأيته. فلما سمع القوم ذلك عجبوا وجعل بعضهم يقول لبعض كيف خُصَّ محمد بن زرعة ويعقوب بن عبد الكريم بهؤلاء الهواتف من بيننا هذا سكونٌ لنا بنا

(قال) ثمَّ اقبل سعيد بن اسمعيل الاسدي على محمد بن زرعة وهو يقول هذه الابيات:

لولا الذي أحرمتَ من غدرة ما راعك الهاتف اذ يهتفُ
خُصصت بالهاتف من بيننا ما لك في قولك ما تتصفُ
والله ربِّ العرش يا اخوتي فانني مجتهدًا احلفُ
لا خنت مَن اهوى ولا سُمتهُ هجرًا ولا مثلي به يوصفُ

(قال) ثم انشأ هارون بن الحصين التميمي يقول هذه الابيات :

أبالاحلام اسلو عن هواي لاقوامٍ انوا بالنَّرَّهاتِ
اتونا يزعمون بانَّ زَوْرًا اتى بنصيحةٍ عند البياتِ
يحضُّهمُ على هجرٍ وغدرٍ وقطع الحبل منَّا والشتاتِ
فمن يك راغبًا عن وصل انسٍ فلست براغب حتى الممات

(قال) وتفرق القوم ليلتهم تلك ايضاً وقد وفق الله تعالى منهم خمسة نفر للتوبة وهم يحيى وسليمان وبشر ومحمد ويعقوب وبقي منهم خمسة هارون وعبدالله وسعيد والاحمدان

(قال) وجعل هؤلاء الخمسة الذين تابوا يدعون الى الله ويتضرَّعون في ان يردَّ قلوب اخوانهم الى ما هم عليهِ من التوبة ويدعوهم اليها فلم يزالوا كذلك الى ان استجاب الله منهم دعاءهم في اخوانهم واقبلوا بقلوبهم الى الطاعة . فكتب كل واحد منهم بابيات من الشعر وارسلوها الى اخوانهم التوابين . فلمَّا وصلت هذه الابيات من هولاء الخمسة الى اخوانهم فرح الذين سبقوهم الى التوبة واستبشروا واشتدَّ سرورهم ثم ابتهلوا الى الله عزَّ وجل في ان يقوّيَ عزمهم فيما عزموا عليهِ من التوبة فاستجاب الله لهم ذلك

(قال) ثم انهم تواعدوا ان يجتمعوا في مشربة لهم فيكلم بعضهم بعضًا فاجتمعوا في مشربتهم تلك وهي مشربة معروفة بالمدينة يقال لها اليوم مشربة التوبة وكانت تعرَف قبلًا بمشربة الطارين بالمدينة . فلما اجتمعوا هناك اعتنقوا وبكى بعضهم على بعضٍ لطول الفرقة وما كانوا عليهِ من التباعد وحمدوا الله على ما هم عليه من التقوى وسالوه التوفيق والعصمة والثبات